المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

أبعاد المجتمع الأندلسي

دراسة في البيئة الأندلسية وأثرها في انسجام المجتمع الأندلسي

Dimensions of Andalusian Society
A study of the Andalusian environment and its impact on the harmony of Andalusian society

بقلم

خالد بن سعود الحربي

محاضر، قسم الأدب والبلاغة والنقد، كلية اللغة العربية،
جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولي/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار مارس ٢٠٢٥م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

أبعاد المجتمع الأندلسي دراسة في البيئة الأندلسية وأثرها في انسجام المجتمع الأندلسي

خالد بن سعود الحربي

محاضر، قسم الأدب والبلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: Kshharbi@uqu.edu.sa

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة أبعاد المجتمع الأندلسي من حيث البيئة الأندلسية وأثرها في انسجام المجتمع، ويمكن ملاحظة مرونة بلاد الأندلس وقدرتها على احتضان الهجرات المختلفة، وذلك عائد إلى تعدد مزايا البلاد ووفرتها، ومن هنا جذبت العرب إليها فأقاموا فيها مدة طويلة، وكان الدافع كبيرا لنشأة هوية جديدة هي هوية الأندلسي تقابل هوية المشرق، وبحثوا في طور تشكل هذه الهوية عن أسباب تميزهم عن المشرق، فوجدوا ذلك في الطبيعة الأندلسية، والتبست الطبيعة بالحبّ، وكانت عاملاً حاسما في انسجام المجتمع الأندلسي، وقد مهد ذلك إلى صعود تيار الغناء، ونشأة فن الموشحات، وإعطاء المرأة الأندلسية حرية كبيرة، مما كان له أثر في انسجام المجتمع الأندلسي ووحدته.

الكلمات المفتاحية: المجتمع الأندلسي، الموشحات، الغناء، الهجرات.

Dimensions of Andalusian Society A study of the Andalusian environment and its impact on the harmony of Andalusian society

Khalid saud hamid alharbi
PhD Researcher, Department of Literature, Rhetoric and Criticism, College of Arabic Language, Umm Al-Qura University, Saudi Arabia
Email: Kshharbi@uqu.edu.sa

Abstract

This research aims to study the dimensions of Andalusian society in terms of the Andalusian environment and its impact on the harmony of society. It can be noted the flexibility of Andalusia and its ability to embrace different migrations due to the multiplicity and abundance of the country's advantages, and hence attracted the Arabs to it, so they stayed in it for a long time, and the motivation was great to create a new identity, which is the identity of the Andalusian, corresponding to the identity of the Orient, and they searched at the stage of forming this identity In the process of forming this identity, they searched for the reasons for their distinction from the East, and they found this in Andalusian nature, and nature was confused with love and was a decisive factor in the harmony of Andalusian society, and this paved the way for the rise of the current of singing, the emergence of the art of music, and giving Andalusian women great freedom, which had an impact on the harmony and unity of Andalusian society.

Keywords: Andalusian society, music, singing, migrations.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تُعد إقامة العرب في بلاد الأندلس وإنشاؤهم حضارة فيها استمرت ثمانية قرون من الأحداث الهامة، التي تستدعي الكشف والإبانة والبحث في العوامل والأسباب التي أدت إلى ذلك، لاسيما مع ما عرف عن شبه الجزيرة الإيبيرية من تدفق الهجرات إليها من مختلف الجهات، وذلك لخصوبتها ووفرة أسباب الحياة فيها، بالإضافة إلى أن هذه البلاد قامت فيها هوية جديدة هي هوية الأندلسي، سعى من خلالها المستوطن الجديد وهو العربيِّ للتميّز بإزاء هوية مضادة وهي هوية المشرق، مما كان له أثر في نشاط مستمر وبحث دائم لإغناء وإثراء هذه الهوية، ومن هنا تبرز الأسئلة التّالية:

- لماذا اجتذبت بلاد الأندلس مختلف الهجرات إليها؟
- هل للموقع الجغرافي لبلاد الأندلس علاقة باستقطاب مختلف الهجرات؟
- ما الأسباب التي دعت العرب للإقامة في شبه الجزيرة الإيبيرية؟
- ما علاقة ذلك بنشأة هوية جديدة هي هوية الأندلسي؟
- ما الأسباب والعوامل التي شكلت الهوية الأندلسية ودعت إلى تميّزها؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة كان هذا البحث، وانتظم من خلال مبحثين، المبحث الأول: البيئة الأندلسية، والمبحث الثاني: أثرها في انسجام المجتمع الأندلسي.

المبحث الأول: البيئة الأندلسية:

تمثِّل شبه الجزيرة الإيبيرية أو ما يعرف بالأندلس درجة عالية من التنوّع توالى في ظلِّها العديد من الأجناس على هذه الأرض، وتركوا ما تركوه من آثارٍ.

وحين العودة إلى الجذور الأولى في التسلسل التاريخيّ، يلاحظ أن "الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصري السلت (الكلت)، والإيبيريين"(١).

وليس هذا المزيج في نطاق ضيق، ولكنه في نطاق واسع يشمل الجزء الأوروبي المحاذي للأندلس والجزء الآسيوي، فهذه البلاد شهدت تأثيرين "أوروبي: عن طريق السلتي واليوناني.

آسيوي: إفريقي أو سامي عن طريق العنصر القرطاجني"(٢).

في ظل ذلك يمكن فهم مرونة هذه البلاد وقدرتها على احتضان الهجرات المختلفة، وهذه الهجرات ليست بمقصورة على قُطر دون قُطر، ولكنها مفتوحة على مالا يحصى عده، إذ إنه "توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة"(٣)، و"تلاقى منذ القدم الإيبريون، والسلتيون، واللاتين من العنصر الأوروبي، والقرطاجنيون واليهود من العنصر الآسيوي الأفريقي، وطرأت على إسبانيا أمم جرمانية مثل الفاندال والقوط"(٤)، و"جرى في هذه الجزيرة من الاختلاط بين الأجناس البشرية والأقوام المختلفة ما لم يجرِ مثله في أي إقليم"(٥).

ولا شك أنّ القدرة على احتضان هذا التنوّع تعود إلى الموقع الاستراتيجي لشبه الجزيرة الإيبيرية، الذي يتوسط فيه مكانها البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؛ البحر المتوسط وهو يجذبها لامتداد المشرق، والمحيط

الأطلسي وهو يدفعها لأفقٍ جديدٍ يمكنها من كسب فرادة على مستوى الموقع ليست لغيرها، وعلى إثر ذلك "استفادت الأندلس من موقعها البحري كشبه جزيرة تتصل بالأطلسي والمتوسط"(٦).

ومن هنا يمكن فهم ما ذهب إليه بعضهم في تعداد مزايا الأندلس، حيث جاء في وصفها أنها إقليم تنتهي إليه فضائل الأقاليم جميعا(٧)، وانتهوا من ذلك إلى أن "الأندلس شامية في طيبة وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها و ذكائها "(٨).

والجغرافيون العرب في وصفهم للأندلس، جعلوها في معظمها داخلة في الإقليم الرابع، وهو خير الأقاليم عندهم.(٩)

وربما يعود ذلك إلى أن البلاد شبه جزيرة، مستقلة بذاتها، حيث يحدها البحر من شرقها و غربها، وبينما توشك أن تمتد شمالا في أوروبا، وتعيقها التضاريس الجبلية تنجذب جنوبا إلى قارة أفريقيا من خلال مضيق جبل طارق، ومن هنا عوضت بثراء طبيعي كان بديلا عما فقدته من موقع تتقاطع فيه مع شبكة دول أو بلدان مختلفة، "فالأندلس وإسبانيا على نحو عام كثيرة الأنهار"(١٠) و كان ثراؤها "مثار مباهاة وفخر عند الأندلسيين"(١١)، وقال ابن اليسع إنه "لا يتزود فيها أحد ماء، حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها"(١٢)، كما جاء في وصفها في كتاب المغرب في حلى المغرب "ميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة، ما بين قرى ومياه ومزارع". (١٣)

ولم تكن بلاد الأندلس نائية عن المشرق ومنقطعة عنه، بل إن لها بالمشرق سببًا واتصالًا، في ظله يمكن أن تمنح الجزيرة الإيبيرية التجربة العربية ثراء وخصوبة، وتمضي بها بعيدًا على مستوى الفن والشعر والجمال.

وكان التشابه من السمات الواضحة بين المكانين إذ" لم تكن البيئة الغربية الجديدة بالنسبة لهم أكثر من تربة مماثلة، يشدها إلى الشرق تقارب الإقليم والمناخ، فهي أقرب إليه موقعًا ومناخًا من أي قطر أوروبي آخر"(١٤)، وهناك "وجوه الشبه العميقة التي تتجلى في التشكل الأرضي لكل من جنوب إسبانيا و شمال مراكش"(١٥)، كما أن "البحر الأبيض المتوسط يجمعها بمناخه مع ركيزة الفتح الأولى في الشام، ومع ركائزه الثانية في تونس والجزائر ومراكش، وهي بعد ذلك من أحسن البلاد مناخًا واعتدال هواء"(١٦)، فضلا عن أن هذا الشبه سيكون سببًا من أسباب استقرار العرب في الأرض الجديدة بعد قدومهم إليها، وشعورهم بالغربة فيها للوهلة الأولى قبل أن تجذبهم تربتها إلى المقام وتشييد ما شيدوه من حضارة "إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاة، نحسب أن مقامنا فيه لا يطول"(١٧).

ويستشف هذا الشبه، فضلا عما جرى ذكره، فيما ورد في كتاب صفة جزيرة الأندلس حينما جرى تشبيه الأندلس ببلدان المشرق فهي "شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم مبانيها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"(١٨).

ومن هنا حملت سمات التشابه شعراء الأندلس على أن يسلكوا مسلك شعراء المشرق فيما ذهبوا إليه من شعر يمجد المتعة ويسعى إليها، حيث توفر أرضهم ما توفره أرض المشرق، فضلا عن أن جمال طبيعتها سيلهمهم شعرًا

يمنحهم مزية وفرادة لم تسبق لغيرهم، وقد "سلك شعراء الأندلس مسلك شعراء بني العباس لتشابه الحياة بالترف والنعمة ولتشابه البلاد"(١٩).

وليس الشبه محدودًا بالطبيعة الجغرافية، ولكنه يمتد ليشمل المكون الاجتماعي في البلاد الجديدة فضلا عن المكوّن الديني، وهو ما يزيد من أسباب التفاعل وآفاقه، ويمضي بها إلى مدى بعيدٍ يمنح اشتباك الأجناس تجربة ثريّة.

و عندما دخل العرب "بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة للحياة في شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم"(٢٠)، وكان للعرب الفضل في رفع نير العسف الذي لقيه البربر من الروم، ومنحوهم بذلك مساحة في التشكيل الاجتماعي الجديد "و نلاحظ أن نوعًا من الحلف قام بين البربر والعرب، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن لهم في العرب حليفاً قويًا يستطيع حمايتهم من الروم، إذا فكر هؤلاء في العودة إلى البلاد، وعلى أي حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو العربي فائدة كبيرة، فقد استقلوا عن الروم"(٢١)، كما كان لهم فضل في رفع نير العسف عن اليهود وكانوا قد لقوا ضيما "طوال عهد الرومان والقوط، وهو عائد إلى العداء بين اليهودية والمسيحية"(٢٢)، و"لم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بالأندلس قبل الإسلام، ومن نبغ منهم في إسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلما كان في الأندلس الإسلامية"(٢٣)، فضلا عن العلاقة مع النصارى أصحاب الأرض "وكان من جراء اختلاطهم بالنصارى، أن شاع عندهم الغزل النصراني"(٢٤).

وبالتالي أُتيح من أسباب الاتصال، ودواعي التناسب بين عناصر المجتمع الأندلسي ما جمع بينهم، وما دفع إلى تشكل هوية جديدة تحاول منافسة هوية المشرق، وابتكار صوتها الحضاري الخاص، مع أتيح لها من موقع جغرافي وجمال طبيعة وتنوع مثرٍ.

والأندلس "تشغل موقعًا متطرفًا في نهاية المعمور من الأرض غربًا، وانعزلت أو كادت تنعزل عن غيرها من الأقطار خارجها"[٢٥]، و"الموقع المنعزل البعيد هيأ للأندلس الفرصة لأن تتخذ لنفسها في وقت مبكر طريقًا مستقلا"[٢٦]، و"هذا التوحيد كان قمينا بأن يجعل الأندلسيين متميزين إزاء إخوانهم المشارقة، ويكفل لهم وحدة داخليَّة في جزيرة تميل إلى التعدد"[٢٧].

وقد ترتب على هذه الوحدة الانتماء إلى المكان، وهو ما يعني الذوبان في النسيج الاجتماعي الجديد، إضافة إلى التماهي مع المكان، وحرص الأندلسيون "في نسبتهم أن ينتسبوا إلى المكان، وليس إلى العرق، وظل إحساس الأندلسيين بالانتماء إلى المكان"[٢٨]، و"العلاقات أدت إلى تنامي العصبية للمكان أي الوطن على حساب العصبية للعرق، ما أسهم في بزوغ ما نسميه الشخصية الأندلسية"[٢٩].

المبحث الثاني

أثرها في انسجام المجتمع الأندلسي:

في طور التشكل لهوية جديدة هي هوية الأندلسيّ كان حبُّ الجديد دافعا للأندلسي ومحركا له رغبة في التميز عن المشرق، وكان التوق والسعي إليه بكافة السبل، لاسيما مع الشعور بجدة المكان، وجدة العناصر المؤلفة للنسيج الاجتماعي، إضافة إلى التمتع بالاستقلالية، وأفق الحرية الواسع، ونصيب المتعة الأكبر، مع طبيعة جاذبة، وأنهار جارية.

و"كان الشعور بالأندلسية أو المغربية ينمو مع الأيام، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات"(٣٠)، و"سرى حب الجديد في نفوس الأندلسيين كما سرى في نفوس أهل الشرق؛ لأن الجيل الذي نشأ في أوربة لم يكن عربيًا خالصا فيستمسك بالقديم استمساك العرب الصرحاء الذين اقتحموا الجزيرة في عهد الفتح، وإنما كان مزيجًا من عناصر مختلفة، اختلطت بالتزاوج والسكنى، فيها العربي والبربري، وفيها القوطي والرومي، وفيها اليهودي واللاتيني"(٣١).

ومن هنا اتجه الشعراء إلى الطبيعة وتغنوا بها، وكانت الطبيعة بديلا عن الصحراء، مكون المشرق الأساسي، فضلا عن بلاد العدوة وهي الجار المنافس، و"تتلمس للطبيعة حضورا قويًّا في الشعر الأندلسي، وربما كان وصفها أهم موضوعات هذا الشعر، وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يربطون بين هذا الموضوع وموضوعات أخرى كالغزل"(٣٢)، "شعر الطبيعة فيها جنوحه إلى التحرر من معاني البداوة التي طبعت شطرًا كبيرًا من الشعر القديم"(٣٣)، و"تمكن الحضارة الجديدة من نفوسهم، وانفصالهم عن أهل البادية، فخرجوا على الأسلوب القديم في كثرتهم، وانصرفوا إلى وصف حياتهم، وما

فيها من عبثٍ ولهوٍ ومجونٍ"[٣٤].

والتبست الطبيعة بالحبِّ، وكان التغني بها لا ينفك عن إثارة عواطف الحب ونوازعه، فالطبيعة حب بذاته، أو هي ملهمة لتجارب حب لا تنتهي، فضلا عن كونها سببًا في الإغراق في اللهو، وخلع العذار في إتيان الملذات.

و"قد حرك مشاعرهم جمال الطبيعة الأندلسية"[٣٥]، و"آثر الأندلسيون بلادهم الجميلة بالحب ومحضوها الإعجاب"[٣٦]، و"الطبيعة لديهم ضاحكة أبدا، والحياة في أحضانها الرحيبة وفوق ربوعها الجميلة بهيجة أبدا"[٣٧]، وظل الشعر الأندلسي "ذا علاقة وثيقة طبيعية بجوانب الحياة الأخرى كالتغني بالطبيعة والخمر والحب"[٣٨].

ومع ما أشاعته الطبيعة من بهجة وشعور بالمتعة صعد تيَّار الغناء، ولقي قدوم زرياب من المشرق تربة خصبة نما فيه فنه وأزهر، واستطاع أن يقود نهضة واسعة، بالذات وأن قدومه كان في خلافة عبد الرحمن الأوسط وقد عرف بولعه بجاريته طروب، بما يجعل قصة الحب هذه مشتبكة مع تحول هام بقدوم زرياب، وكان "عبد الرحمن الأوسط محبا للشعر، وطروب أحب نسائه، وزرياب المغني. فكان إقباله على بلاط عبد الرحمن الأوسط إيذانا بتحول هذا البلاط من خشونته إلى ترف قصور الحكام"[٣٩]، وليس ببعيدٍ عن ذلك كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي دشنته الأرض الأندلسية لملائمة جوها ومزاجها للغناء، و"أرسل أبو الفرج الأصفهاني من كتابه هذا نسخة إلى الأندلس، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم"[٤٠].

ويتصل الغناء بابتكار فن الموشحات، وهو فن أندلسي خالص يحتفي بثيمات الطبيعة والحب والجمال، و"الموشحات كانت نتيجة الغناء"(٤١)، و"عرف عن الأندلسيين حبهم للغناء، والموشحات إنما وضعت لتغنى، ومعظمها يدور في موضوعات اللهو والخمر والطبيعة"(٤٢)، وهي ترتبط بخصوصية في الغزل، وفيها "الخرجات تقال كلها تقريبا على لسان فتاة تتغزل في فتى، وتعلنه بحبه وشوقها"(٤٣).

وتعتبر هذه الخصوصية لفن الموشحات انعكاس لخصوصية التجربة الأندلسية، على مستوى الطبيعة والحب والغزل، وما أتاحه لها اجتماع الأسباب من هوية مميزة، و"كما تأثر الشعر العربي في الشرق بالآداب الفارسية فقد تأثر في إسبانيا باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئًا فشيئًا، فكان ذلك سببًا في إدخال عناصر جديدة ظهرت في آدابهما، ولعل أمتع ميزات الشعر الإسباني هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب، والذي ظهر كثيرا في أغانيهم عن الحب"(٤٤).

و"كان كل ما في الأندلس يدعو إلى الغزل والنسيب، فمن طبيعة فتانة إلى حضارة وعمران، إلى حدائق و رياض، إلى مجالس للهو والخمر والغناء، وكان من ذلك أن أمعن أهل الأندلس في حياة النعمة والترف، وأخلدوا إلى الحب والغزل"(٤٥).

وارتبط ذلك بما توفَّر للمرأة الأندلسية من حرية في هذا الصقع النائي، والتشكيل الحضاري الجديد لم تعرفه المرأة في المشرق، و"في ظل هذا المجتمع كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ، تتمتع بقسط كبير من الحرية"(٤٦) و"أباحت الأندلسية لنفسها أن تتغزل في الرجل كما يتغزل الرجل في المرأة، وهذه ظاهرة تتكرر كثيرا في الأندلس"(٤٧)، و"تمتعت المرأة الأندلسية بحرية لم

تعرفها بغداد في أوج ازدهارها، وذلك ويرجع ولا شك إلى العقلية الأوروبية التي طعمت المجتمع العربي بكثير من مزاياها"[٤٨]، ويرد ذلك بعضهم إلى سببين آخرين " أ – احتكاك المرأة هناك بالشعوب الأوربية التي أثرت في ذلك. ب – اختلاط العرب بالبربر، وكانت للمرأة في مجتمعاتهم مكانة تختلف عن مكانتها في المجتمع العربي"[٤٩].

ومن هنا شاعت قصص الحب المختلفة وانتشرت في البيئة الأندلسيّة، وهناك "محمد بن صفر الذي تغنى بجمال وادي المرية، وصور المد في مدخل الوادي الكبير"[٥٠]، و"ممن استلهم الوادي الكبير إبراهيم بن سهل، وكان يهوديًّا فأسلم، وأدرك شهرة عظيمة؛ لأنه اجتمع فيه ذلان: ذل العشق وذل اليهودية"[٥١]، و"أبو بحر صفوان بن إدريس، فقد كان شاعرًا محسنًا، يهدي مقطعات نسيبه إلى من يتغزل فيه "[٥٢]، وحفصة الحجارية، فقد "فاقت حفصة أية شاعرة أخرى في جرأتها على معاني العشق والهيام"[٥٣]، و"الرمادي، وصورته في الإقبال على اللذات والاستهتار صورة واضحة تلحقه بالنواسي"[٥٤]، و"كان ابن السراج المالقي شاعر بني حمود يتعشق جارية تدعى حسن الورد، وجارية أخرى تدعى أزهر، وله فيهما عدة مقطعات أوردها ابن بسام في الذخيرة، وكان ابن الحداد قد شغف في صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب"[٥٥]، وابن زيدون مع ولادة "وهي أديبة، شاعرة، ظريفة، أميرة، من البيت الأموي، وتتصل سلسلة أجدادها بعبد الرحمن الداخل، من بني عبد الملك بن مروان، وهي ابنة الخليفة محمد بن عبد الرحمن الناصري، الملقب بالمستكفي"[٥٦].

وحين الحديث عن خلفيّة ولادة بنت المستكفي ينبغي استذكار أمراء بني أميَّة "وكان من قبل أمراء بني أميَّة قد عرفوا بميلهم الشديد إلى النساء، فأكثروا من شعر الحب والتذلل في غزلهم للحبيبات، كالحكم الربضي وولده عبد الرحمن الثَّاني، الذي سيطرت على قلبه جاريته طروب التي كلف بها كلفًا شديدًا، حتى قيل إنه أعطاها من خزانة الملك ما قيمته مائة ألف دينار"(٥٧).

ومن هنا فإن نمو الشعور بالشخصيّة الأندلسيّة على مرّ الزمن، وما رافقه من التغنّي بالمكان وسحره وإلهامه، وقصص الحب المختلفة التي مسّت جميع أطراف النسيج الاجتماعي الأندلسي ترتبط من لحظة تشكّل في البدء تقوم فيه على المؤسس الأمويّ، وصولًا إلى ذروة من اشتباك قصص الحبّ واجتماعها في عصر ملوك الطوائف، وهو ما مثّل التعددية الأندلسية، وتوهّجت فيه هذه القصص بين أسماء متنوّعة، ربما تعد أكثرها شهرة قصّة ابن زيدون وولادة بنت المستكفي و"صورة ابن زيدون وولادة طاغية على ما سواها من قصص الحب والغزل الأندلسيين، وسبب ذلك أنها قصة تمثل العلاقة الأرستقراطية بين اثنين من السادة، أحدهما مخزومي النسب، وصاحبته أموية من بيت الخلافة"(٥٨).

وفي التجربة الأندلسيّة اجتمع المكان والإنسان، فكانا من العوامل التي أسهمت في تشكّل عاطفة الحب، وحين إيراد بعضاً من علامات الحب يمكن ملاحظة ذلك:

١ – إدمان النّظر(٥٩)، والعين ما بها يُدرك الحسن ويُميّز، ويرصد الجمال ويوقف عليه، ويستلذ به، إن كان هذا الجمال في الإنسان ومزاياه وما وهب، أو كان الجمال في الطبيعة وفتنتها وسحرها.

وقد كانت عناصر المجتمع الأندلسي تتسم بالجدة فضلًا عما عرف بـه النساء الأندلسيات من نزوع إلى الشقرة مما سيكون لـه أثـر فـي النسـيج الاجتماعي، فضلا عن المكان الأندلسي الذي يتمتع بطبيعة ساحرة، والتفاعل مع كل هذه العناصر بصريًّا لابد أن تكون له تجربته الخاصة وطابعه الجديد.

ويروى أن المنصور كان ملولا محبًّا للتغيير في كل شيء، "ولا يـأنس امرأة ولا صديقًا ولا حال إلا مله وانقلب حبه له كرهًا ونفورًا، وقد كان يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليـه، حتى يملكها وإن غلا ثمنها وصعب منالها، فإذا صارت إليه زهد فيها ونفـر منها حتى يبيعها بأوكس الأثمان، وقد أتلف في هذا الأمر مالاً كثيـرًا، كمـا ابتلى بحبه جوارٍ كثيرًا لم يفِ لهن"(٦٠).

وقد افتتح ابن حزم رسالته في الحب بذكر النظر في علامات الحـب، ولعله حينما افتتح بذكر إدمان النظر، والعين مفتاح لكل حسن، كان يدرك ما تنطوي عليه البيئة الأندلسيّة من خصوصية تتسم فيه بالجمال الطَّبيعيّ، ومـن هنا يجتمع تحت إدمان النظر الإنسان والمكان، فيشعلان حاسة الذوق الجماليّة ويرويانها، و"لابن حزم قيم جمالية نراها متفرقة في الطوق؛ فهـو حسـاس لجمال الطبيعة الخارجيّة، فيصف المتنزهات التي كانت تكثر فـي ضـواحي قرطبة، وهو حساس أيضًا لجمال الصور البشريّة، ويرى أن النفس جميلـة، وترنو إلى الصُّور الحسنة، ولكن الجمال لا يقتصر على الصور بل يتجاوزها إلى جمال الروح"(٦١).

وقد كان بنو عذرة الذين عرفوا بالحبّ العذريّ يعيشون في مكان ممرع مُخصب قريب من المكان الأندلسيّ الذي أوحى ما أوحى إلى شـعرائه بمـا يمكن من القول إن المكان حافز من حوافز إثارة عاطفة الحـب وإشـعالها،

"وكانوا يسكنون وادي القرى، وهو وادٍ طويل بين تيماء وخيبر، فيه قرى منثورة، وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل:

ولقد أجرُّ الذيلَ في وادي القُرَى .:. نشوانَ بين مزارعٍ ونَخِيلِ

وفي هذا الوادي الممرع الخصب، كان بنو عذرة يتنقلون بخيامهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هانئة بالقياس إلى قبائل الصَّحراء الذين كانوا يُقاسون غير قليل من الشّظف، حين تجدب مراعيهم، فتموت القطعان، ويهلك الناس"(٦٢).

٢ – الإسراع بالسّير نحو المكان الذي يكون فيه(٦٣)، وحينما يذكر ابن حزم الإسراع نحو المكان، فالإسراع يقتضي الرغبة العميقة، والمكان هو ما يوثّق اللحظات ويشدّ الزمن إليه برابط يربط العاشق والمعشوق به، ويمثّل المكان عنصرًا مهمًّا، وقد كانت القصيدة العربيّة القديمة تبدأ بذكر الطلل وتستفتح الحديث به، والطلل يمثّل مكانًا ومستودعًا للأحداث ومخزنًا للذكرى، يحتفظ بطاقة الحب ويجددها على مرّ الزمن كلما طاف به العاشقان بين فينة وأخرى، وفي المدوّنة الأندلسية تتواشج الأمكنة، وتعتنق في نسيج يوحده الحبّ، يقول ابن زيدون٦٤:

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقاً .:. والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله .:. كأنه رق لي فاعتلّ إشفاقا

ويستدعي الرُّصافة وهي مكان حافل بالذكريات المجيدة(٦٥):

ولا زال نور في الرُّصافة ضاحكٌ .:. بأرجائها يبكي عليه غمامُ

معاهد لهو لم تزل في ظلالها .:. تدار علينا للمجون مُدامُ

وينادي ابن زيدون قُرطبة لتكون قريبة منه فيشعر أنها دانية، لا شيء يحول بينه وبينها[٦٦]:

أقرطبة الغرّاء هل فيكِ مطمعُ .:. وهل كبد حرى لبينك تنقع؟

وتأتي قرطبة واستحضار الذكريات فيها عند شاعر آخر[٦٧]:

ماذا أُكَابِدُ من وُرْقٍ مُغرِّدةٍ .:. على قضيبٍ بذاتِ الجِزْعِ ميَّاسِ
رَدَدْنَ شجواً شجا قَلْبَ الخلّيّ فهلْ .:. في عَبْرَةٍ ذَرَفتْ في الحُبِّ من باسِ
ذكَّرْنَهُ الزَّمنَ الماضِي بقُرطبةٍ .:. بين الأحبَّةِ في أمْنٍ وإيناسِ

كما أنّ ابن الزقاق البلنسي يستحضر موطنه بلنسيّة، وهو يشعر أن لا بلد يضاهيها، ولا مكان يدنو منها حين المقارنة معها في المزايا، فهي قد حازت التفرد من وجهة نظره [٦٨] :

بلنسية إذا فكّرت فيها .:. وفي آياتها أسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عليها .:. بأن جمالها للعين باد
كساها ربنا ديباج حُسن .:. لها علمان من بحر ووادٍ

وفي البيئة الأندلسيّة ربما يمنح المكان أضعاف ما يمنحه في البيئة الصحراويّة، حيث يمثّل المكان الطبيعة الفاتنة والأرض الخلابة التي تمتلك الأنهار والأشجار والظلال، وما تجذب إليها به الإنسان وتسحره بطابعها الخاص، ومن هنا فهي عنصر مهم في تشكيل علاقة الحب أو الذهاب به إلى مدى بعيد غير متوقع فيما لو لم تكن موجودة.

وقد ذكر ابن حزم المكان مرة أخرى "التضايق في المكان الواسع"[٦٩]، واستحضر أبياتًا شعريّة من قوله بما يغري بالقول إن المكان يمثّل استثارة للروح الشعريّة وحفزًا لها على القول والإنشاد والتغني، كما استحضر أبياتًا

شعريّة حينما ذكر إدمان النّظر.

وقد كان من الأمكنة باب العطارين و"يقدم ابن حزم معلومة مهمّة عــن باب العطارين إذ كان هذا الموضع مجتمع النّساء في وقته، ولكنه لا يقدم أي تفصيل حول هذا الموضع، وربما كان هناك متنزه أو سوق تجتمع فيه النساء، حتى أصبح بمرور الوقت مكانًا خاصًا بهن، ومكانًا يلتقي فيه العشاق"(٧٠).

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع أبعاد المجتمع الأندلسي يمكن رصد النتائج التالية:

١) استقطبت بلاد الأندلس هجرات مختلفة إليها وذلك عائد إلى خصوبة البلاد، وكثرة خيراتها، فضلاً عن موقعها المميز.

٢) وجد العرب في بلاد الأندلس صورة مشابهة لبلادهم، مما مكنهم من الاستقرار والحياة فيها.

٣) هيأ الموقع المنعزل البعيد للأندلس أن تتخذ لنفسها هوية مستقلة مميزة.

٤) كانت الطبيعة الأندلسية بديلا عن الصحراء، وقد تغنى بها الشعراء، وارتبطت الطبيعة بجو الترف، الذي أسهم في نشأة العديد من قصص الحب والغرام تحت ظلالها.

٥) كان الشعور بالأندلسية ينمو مع الأيام، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات.

قائمة الهوامش:

(١) المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، ١٩٨٨م، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤.

(٤) الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، محمد سعيد الدغلي، منشورات دار أسامة، ١٩٨٤م، ص١٥.

(٥) الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافيّة، عبادة عبد الرحمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥م، ص٩.

(٦) الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص٦٥.

(٧) المرجع السابق، ص١٤.

(٨) صفة جزيرة الأندلس، محمد بن عبد الله الحميري، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ص٣.

(٩) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م، ص٥٢٥.

(١٠) الخصوصية الأندلسيّة وأصولها الجغرافيّة، ص٤١.

(١١) الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص٥٢.

(١٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج١، ص ٢٠٨.

(١٣) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي الأندلسي، حققه وعلق عليه: شوقي ضيف، ذخائر العرب، دار المعارف بمصر، ص٩.

(١٤) الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص١٤.

(١٥) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١٤.

(١٦) الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص١٤.

(١٧) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ص١٥.

(١٨) صفة جزيرة الأندلس، ص٣.
(١٩) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص٣٨.
(٢٠) المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ص٢٦.
(٢١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، كامل كيلاني، مطبعة المكتبة التجارية، مصر، ص٣٧.
(٢٢) المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ص٤٧.
(٢٣) المرجع السابق، ص٥٠.
(٢٤) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص٧٢.
(٢٥) الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافيّة، ص١١.
(٢٦) المرجع السابق، ص١١.
(٢٧) المرجع السابق، ص١٣.
(٢٨) المرجع السابق، ص٢٨.
(٢٩) المرجع السابق، ص٦٦.
(٣٠) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص٣٥.
(٣١) أدباء العرب في عصر الأندلس وعصر الانبعاث، ص٣٨.
(٣٢) الخصوصية الأندلسية، وأصولها الجغرافيّة، ص٦٤.
(٣٣) في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، دار المعارف، مصر، ص٢٥٤.
(٣٤) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص٦٠.
(٣٥) تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١ م، ص٦٨.
(٣٦) ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، منشورات دار الشرق، بيروت، ص٢٦٤.
(٣٧) المرجع السابق، ص٢٦٣.
(٣٨) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص٩٥.
(٣٩) تاريخ الفكر الأندلسي، ص١٨.
(٤٠) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص٥٩.
(٤١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، ص٢٤٧.
(٤٢) الخصوصية الأندلسيّة، وأصولها الجغرافيّة، ص٥٩.

(٤٣) المرجع السابق، ص٥٩.
(٤٤) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، ص٣٤٠.
(٤٥) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص٦٨.
(٤٦) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص٢٣.
(٤٧) الشِّعر النسوي الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري، سعد بوفلاقة، جامعة عنابة، ص١٨٤.
(٤٨) المرجع السابق، ص٦٧.
(٤٩) المرجع السابق، ص١٤.
(٥٠) تاريخ الفكر الأندلسي، ص١٥٩.
(٥١) المرجع السابق، ص١٥٩.
(٥٢) المرجع السابق، ص١٥٩.
(٥٣) الشِّعر النسوي الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري، ص١٤٨.
(٥٤) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م، ص١٢٧.
(٥٥) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص١٢٩.
(٥٦) الشعر النسوي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص٧٢.
(٥٧) المرجع السابق، ص١٨.
(٥٨) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص١٣٠.
(٥٩) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: د. صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال إبراهيم، إشراف: د. عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٢٢م، ص٣٠.
(٦٠) ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، قاسم الحسيني، مجلة آداب ذي قار، ع ٢٨، ٢٠١٨م، ص٣٣، هو المنصور بن أبي عامر.
(٦١) طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م، ص١٩٠.
(٦٢) الحب العُذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٩م، ص١٩.

(٦٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣١.

(٦٤) ديوان ابن زيدون، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربيّ، بيـــروت، ١٩٩٤م، ص ١٩٤.

(٦٥) المرجع السابق، ص٢٧٤.

(٦٦) المرجع السابق، ص١٩٨.

(٦٧) نفح الطيب من غصنِ الأندلس الرَّطيب، المقري التلمساني، حققه: د. إحســـان عبـــاس، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ١٣.

(٦٨) ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق: عفيفة محمود ديرانـــي، دار الثقافـــة، بيـــروت، ص ١٣٩.

(٦٩) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص٣٢.

(٧٠) ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، ص٣٧.

المصادر والمراجع:

- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م
- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م،
- تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت
- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١ م.
- الحب العُذري عند العرب، د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٩م
- حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت
- الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، محمد سعيد الدغلي، منشورات دار أسامة، ١٩٨٤م.
- الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافيّة، عبادة عبد الرحمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥م.
- ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق: عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت.
- ديوان ابن زيدون، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م
- صفة جزيرة الأندلس، محمد بن عبد الله الحميري، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت
- طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م

- طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلّاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: د. صلاح فضل، شرح وتعليق: د. آمال إبراهيم، إشراف: د. عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٢٢م.
- المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، ١٩٨٨م.
- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي الأندلسي، حققه وعلق عليه: شوقي ضيف، ذخائر العرب، دار المعارف بمصر.
- ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، منشورات دار الشرق، بيروت
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م
- نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، كامل كيلاني، مطبعة المكتبة التجارية، مصر
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- نفح الطيب من غصنِ الأندلس الرَّطيب، المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- دوريات:
- الشِّعر النسوي الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري، سعد بوفلاقة، جامعة عنابة.
- ملامح من تاريخ الأندلس الاجتماعي والحضاري من خلال كتاب طوق الحمامة، قاسم الحسيني، مجلة آداب ذي قار، ع ٢٨، ٢٠١٨م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٦٢٣
٢-	Abstract	١٦٢٤
٣-	مقدمة	١٦٢٥
٤-	المبحث الأول: البيئة الأندلسية:	١٦٢٦
٥-	المبحث الثاني: أثرها في انسجام المجتمع الأندلسي:	١٦٣١
٦-	الخاتمة	١٦٤٠
٧-	قائمة الهوامش:	١٦٤١
٨-	المصادر والمراجع:	١٦٤٥
٩-	فهرس الموضوعات	١٦٤٧

تم بحمد الله